

المسلم.. بين إبداء أعماله وإخفائها



«يمرُّ المسلم بمراحل متعدّدة في حياته. تارةً يعيشُ ساعات صفاء نفس وحضور عقلٍ وقلبٍ، فتميلُ نفسه إلى الطاعة، وإلى أداء ما افترضه الله عليه، فيكثرُ من الطاعات، ويتقربُ إلى الله بالنوافل طمعاً في محبة الله. وكلما ازداد المسلمُ المؤمنُ في طاعة ربه، تيقنَ فؤادهُ إلى مقامٍ أرفعَ ممّا بلغَ، وإلى مرتبةٍ وراء ما ارتقى، وتطلّعَ إلى المقام الذي يصحو فيه قلبهُ فلا ينام.

وتارةً يمرُّ المسلم بساعاتٍ ابتلاءٍ وامتحان، فتميلُ نفسهُ إلى ما يشتهي، ويضعُفُ أمام الابتلاء. وقد تنحكّم فيه الأهواءُ، فيتعرّضُ لارتكاب الذنوب والآثام.

والمؤمن يجتهدُ عند أدائه الطاعة أن يخفيها عن أعينِ الخلق وآذانهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مكتفياً بالاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى يسمعُ ويرى، وأن الخلق لا يملكون له ضرراً ولا نفعاً، وأن رضوان الله تعالى ومثوبتهُ فوق رضا الخلق وثنائهم، هذا بالنسبة للنوافل والتطوّعات.

أما أداءُ الفرائض والأركانِ فهذه يتمُّ إظهارها تعظيماً لشعائر الإسلام، وإبرازاً لقوّة تمسُّك المسلمين بها، ومنعاً للتّهمةِ وإساءة الظنِّ بالمسلم أن يُظنَّ به تضييعُ ما فرض الله عليه، وحتى يكون المسلمُ مثلاً يُقتدى ويتشبه به الآخرون؛ فإنَّ الخير يُغري بالخير، والصلاح يدعو إلى الصلاح. ومع هذا يمكن أن تظهر نوافل الطاعات والأعمال الصالحة من المسلم من غير قصدٍ لإظهارها مُراءاةً للناس. فرحُ المسلم بأدائه للطاعات فرحٌ محمودٌ إذا كان شكراً لله تعالى على نعمة التوفيق للطاعة. قال تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَا تَفْرَدُوا هُودًا خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس/ 58).

وقد يكون فرح المؤمن بأظهار طاعته حافزاً لغيره ليقتدى به؛ فيكثرُ الصالحون، ويزداد عددُ المطيعين لله تعالى.

وقد يكون إظهار الطاعة سبباً لمحبة الناس له، والرضى عنه، والثناء عليه.

قال (ص): "ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حُلَاةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ فِي رَسُولِهِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الصَّرَّ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا فِي، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ أَنْ أَنْقَذَهُ إِلَّا مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدِّفَ فِي النَّارِ" (43 مسلم، 1/66).

ومما يُحْمَدُ لِأَجْلِهِ إِظْهَارُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ تَرْغِيبُ الْآخِرِينَ فِيهِ، وَسَنُّ السُّنَّةِ الْحَسَنَةِ لِيُقْتَدَى بِهَا.

عن جرير بن عباد: "مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِمْ شَيْءٌ. وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" (1017 مسلم، 4/2059).

وقد أُمِرَ الْأَنْبِيَاءُ بِإِظْهَارِ الطَّاعَاتِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ أُسْوَةً لِاتِّبَاعِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب/ 21).

ومثُلُ الْأَنْبِيَاءِ خُلَفَاؤُهُمْ، وَوَرَثَتُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالِدَعَاةِ حَيْثُ يُقْتَدَى بِهِمْ.

فَإِذَا أَسْرَّ الْمُسْلِمُ طَاعَتَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ، وَالسَّمِيعُ الْبَصِيرُ يَسْمَعُ، وَيَرَى، وَيُثَبِّتُ عَلَى عَمَلِ السِّرِّ. وَإِذَا كَانَ عَمَلُهُ فِي الْعَلَانِ لَا يَقْصُدُ مِنْهُ إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَإِبْدَاءُ الْمَثَلِ الصَّالِحِ لِلنَّاسِ لِيُقْتَدُوا بِهِ، كَانَ عَمَلُهُ خَيْرًا أَيْضًا.

لِذَلِكَ أَثْنَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَمَلِ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّ تُوْبِدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْفِقُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ) (البقرة/ 271).

وقال تعالى: (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة/ 274).

وبهذا يكون المؤمن قد عَدَدَ اللَّهُ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ، وَعَلَى كُلِّ الْأَحْوَالِ، وَإِنْ كَانَ الْإِسْرَارُ بِالصَّدَقَةِ أَفْضَلَ، وَخُصُوصًا إِذَا خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ الرِّيَاءَ وَالْفِتْنَةَ مِنْ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ. فَفِي الْإِسْرَارِ رِعَايَةٌ لِحُرْمَةِ الْفَقِيرِ، وَحِفْظٌ لِكِرَامَتِهِ لِأَنَّ سِرًّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَسْتُورِينَ الْمُتَعَفِّفِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ: (يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ فَتَعَرَّفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) (البقرة/ 273).

وفي حديث أبي هريرة (رض) قال (ص): "سَيِّئَةٌ يُظَلِّلُهَا اللَّهُ فِي ظُلْمَةٍ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ". . . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تَنْفِقُ شِمَالُهُ" (1031 مسلم، 715/2)؛ وَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الْأَعْلَى. وَلَكِنْ إِذَا أَبَدَى الصَّدَقَةَ أَوْ أَظْهَرَ الْعِلْمَ الصَّالِحَ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي ذُكِرَتْ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، فَالْمُسْلِمُ يَفْتَشُ عَنْ دَخِيلَةٍ نَفْسِهِ وَيَحْتَرِسُ مِنْ خِدَاعِهَا، فَإِنَّهَا أُمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، وَلِيَحْذَرَ مَا اسْتِطَاعَ مِنَ الرِّيَاءِ. فَرَبِّمَا كَانَ هُنَاكَ رِيَاءٌ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ، يَتَسَلَّلُ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ فَيُحِيطُ بِعَمَلِهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنََّّهُ يُحْسِنُ صُنْعًا. وَهَذَا لِأَنَّ لَهُ مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالْعَزِّ وَجَلِّ وَالْبِرَاءَةِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَاللَّجْوَةِ إِلَى حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ، وَمِنْ الدَّعَاءِ الْمَأْثُورِ:

"اللَّهُمَّ إِنِّي نَعُوذُ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ" (19553 مسند أحمد، 4/543).

وَإِذَا كَانَ الشَّرْعُ قَدْ رَخَّصَ فِي إِظْهَارِ الطَّاعَاتِ، وَخُصُوصًا الْفَرَائِضَ، بَلْ وَالنَّوَافِلَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرُخَّصْ فِي إِظْهَارِ الْمَعَاصِي وَالْإِعْلَانِ عَنْهَا. بَلْ أَمَرَ بِإِخْفَائِهَا إِنْ وَقَعَتْ، وَكَتَمَاتِهَا عَنِ الْغَيْبِ مَا اسْتِطَاعَ الْمُسْلِمُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا. لِأَنَّهُ يُحْمَدُ كِتْمَانُ الذُّنُوبِ، وَيَكْرَهُ إِطْلَاعُ النَّاسِ عَلَى الْعُيُوبِ لِعَدَّةِ سَبَبَاتِهَا أُنْمَا مَأْمُورُونَ بِأَنَّهَا إِذَا ابْتُلِينَا بِمَعَاصِي اللَّهِ أَنْ نَسْتَدْرِكَ بِسْتُرِهِ سُبْحَانَهُ وَلَا نَفْضَحْ أَنْفُسَنَا. قَالَ (ص): "اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَادُورَةَ الَّتِي نَهَى عَنْهَا فَمَنْ أَلْمَسَ [1] فَلْيَسْتَدْرِكْ بِسْتُرِ اللَّهِ" (المستدرک، 4/244).

والمسلم يكره ظُهُورَ المعصية من غيره كما يكرهها من نفسه. قال (ص): "لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه" (2515 سن الترمذي، 4/667)، ومفهومه أن يكره له ما يكره لنفسه.

والمسلم لا يهتكُ سِتْرَ نفسه خوفاً من أن تألفَ نفسه الذنوب، فتسترسل بارتكابها، ولا تُبالِ باجتناها.. هذا الخوف من هتكِ السِتْرِ في الدنيا يتبعه خوفٌ من الهتكِ في الآخرة وهو أشدُّ وأخزى. وقد كان دعاء الصالحين: "اللهم..، كما سَتَرْتَ علينا في الدنيا، أَسْتُرْ علينا في الآخرة ولا تَفْضَحْنَا على رؤوسِ الأَشْهادِ يومَ العَرَضِ عليك".

والمسلم يرغب أن يكون قدوةً في الخير لا في معاصيهِ. فإذا أظهرَ المعاصي فقد يكون سبباً في انتشارها وتجرؤِ الناسِ عليها. فَحَسْبُهُ أن يتورَّطَ في المعصية، على أمل التوبة منها، ويسألَ التوبة والمغفرة. أما إذا أظهرَها فقد تَشِيعُ وتَتَسَعُّ، فيُشَكِّلُ ذلكَ تَعَدُّياً، وقد يسبِّبُ عدوى لغيره كما يُعدي الأجرِبُ السليمَ. لهذا ينبغي للعاصي أن يُخفي معصيته حتى على أقرب الناسِ إليه مثل أهله وولده وخادمه حتى لا يتأسَّسوا به.

والمسلم يأملُ في كل لحظةٍ بالتوبة ويعمل لها، فيكون في مظنة العفوِّ والمعافة من □□ تعالى، ولا يدخل في زمرة المُتَبَجِّحين المَجاهرين بالسوء المُتَفاخرين بما ارتكبوا من موبقات.

قال (ص): "كل أمّتي معافى إلا المَجاهرين، وإن من المَجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره □□، فيقول: يا فلان، عملتَ الباردة كذا وكذا، وقد باتَ يَسْتُرُهُ رِيثُهُ ويصبحُ يكشفُ سترَ □□ عنه" (6069 فتح الباري، 10/486).

والمسلمُ حين يستترُ عند المعصية يدخلُ في زمرةِ المشهود لهم من الأُمَّةِ بالخير والناسِ شهداءِ □□ في الأرض. وقد مرت جنازةُ فأثني الصحابة عليها خيراً. فقال نبي □□ (ص): "وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ"، ومُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأَثْنِيَّ عَلَيْهَا شَرًّا. فقال نبي □□ (ص): "وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ". قال عُمَرُ: فِدَى لِكَ أَبِي وَأُمِّي! مُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأَثْنِيَّ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتُ: وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ. ومُرَّ بِجِنَازَةٍ فَأَثْنِيَّ عَلَيْهَا شَرًّا فَقُلْتُ: وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ وَجَدْتُمْ؟ فقال رسول □□ (ص): "من أثنتم عليه خيراً وجبت له الجنَّةُ. ومن أثنتم عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداءُ □□ في الأرض. أنتم شهداءُ □□ في الأرض. أنتم شهداءُ □□ في الأرض." (949 مسلم، 2/655).

قال (ص): ما من مسلمٍ يموتُ فيشْهَدُ له أربعةٌ من أهل أبيات جيرانهِ الاَدْنِيين إنهم لا يعلمون منه إلا خيراً إلا قال □□ تعالى وتبارك: "قد قَبِلْتُمْ قَوْلَكُمْ"، أو قال: "شهادتكم، وغفرتُ له ما لا تعلمون" (المستدرک، 1/378).

والمسلم حين يتعدى عن المعاصي أو يحرصُ على الاستتار منها يصبح محبوباً من الناس، وخاصةً أهل الخير منهم. ومحببةُ أهل الخير بابٌ من أبوابِ محبة □□ سبحانه وتعالى؛ فال□□ هو الذي سَتَرَ قَبِيحَهُ وأظهرَ جَمِيلَهُ. قال تعالى: (إِنَّ السَّادِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (مریم/ 96). فإنَّ مَنْ أَحْبَبَهُ □□ تعالى جعلَهُ محبوباً في قلوبِ عباده.

قال (ص): "إن □□، إذا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ، فقال: إِنَّي أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحْبَبْتَهُ". قال: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ. ثُمَّ بَنَادِي فِي السَّمَاءِ فيقول: إِنَّ □□ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبَبْتُوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قال، ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ" (2637 مسلم، 4/2030).

اللَّهُمَّ احْفَظْنَا بحفْظِكَ الجميلِ، واسْتُرْنَا بسِتْرِكَ، وعامِلنا بعَفْوِكَ وفَصْلِكَ، واقبلنا في عبادِكَ الصالحين. ▶

[1]- أي أصاب شيئاً منها.